عدد خاص

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد التاسع - العدد الرابع - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

٤

القرن الخامس عشر الهجري

الأبحاث والدراسات

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

القرآن الكريم في بلاد الروس البيض

بقلم
الشيخ طه الولي
المستشار الثقافي والصحافي
في سفارة تشاد في بيروت

بين يدي الموضوع :

القرآن الكريم ، من غير شك ، هو اقدم الكتب التي ظهرت باللغة العربية . وبالرغم من ان العرب في جاهليتهم عرفوا بعض المصنفات التي تناول مؤلفوها موضوعات مختلفة الا ان هذه المصنفات بقيت متأرجحة بين الشك واليقين ما خلا بعض الكتابات التي تناقلها الرواة شفهيا دون ان يتأكد وجود اصولها المكتوبة ، بخلاف كتاب الله الذي يعتبر ، من الناحية العلمية ، اول الكتب التي دونت وهو ما يزال محافظا على نصه الاصلي الذي نزل به الوحي على قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو ما اكدته الآية الكريمة في قوله تعالى « **إنّا نحنْ نزّلنا الذّكْر وإنا لهُ لحافِظونَ** » .

والقرآن الكريم هو اكثر الكتب تداولا وقراءة في العالم . يتلوه جميع المسلمين بلغته العربية ، من يعرف هذه اللغة ومن لم يعرفها لان المسلم لا تصح صلاته الا اذا قرأ فيها شيئا من هذا الكتاب وبهذه اللغة بالذات ، كما ان عددا لا يحصى من غير المسلمين يقرؤنه لاسباب علمية وغير علمية من اجل ارضاء فضولهم لمعرفة الدين الاسلامي الذي يعتبر القرآن مصدره الرئيسي الذي لا خلاف عليه .

وبطبيعة الحال ، فان القرآن الكريم يحتل المكانة الاولى عند المسلمين في جميع اقطارهم وامصارهم وعلى اختلاف فرقهم ومذاهبهم ، فهو بالنسبة الى كل مسلم كلام الله عزوجل الذي اوحى به الى النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الكلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه سوءا في بنيته اللغوية او في تعاليمه التشريعية او مبادئه العقائدية .

ولا يمكن ان يخلو أي بيت من بيوت المسلمين من نسخة من هذا الكتاب ذلك انهم جميعهم يحرصون على اقتنائه ويعتقدون بان تلاوته من حين لاخر بالاضافة الى وجوده في حوزتهم يجلب لهم البركة ويضاعف من ثوابهم عند الله ويحميهم من كل اذى او مكروه . ولم يعرف التاريخ ، على امتداده ، ان امة اعتنت بكتابها الديني كما اعتنى المسلمون بالقرآن . فهم يبالغون في كتابته باحسن الخطوط ويختارون له اجود انواع الورق ويفرغون فيه كل ما أوتوا من قدرة على الاتقان والتجميل والزخرفة . وكثيرا ما كتبوه بمداد الذهب الخالص ورصعوه بأغلى الجواهر الثمينة ، وصانوه من العبث او التلف بوضعه في اعز مكان داخل بيوتهم ومؤسساتهم ، ويتساوى في هذه العناية الفائقة عامة المسلمين وخاصتهم ابتداء من الملوك والرؤساء وانتهاء بالاشخاص العاديين . وان العائلات الاسلامية تتوارث القرآن فيما بينها على انه هدية كريمة من الآباء للابناء ، ولاسيما اذا كانت نسخته نادرة او قديمة ، بل ان الدول الاسلامية نفسها تحرص على ما لديها من نسخ القرآن القديمة وتعتبرها من الكنوز الوطنية التي لا يجوز التصرف بها او التفريط بوجودها لديها وتسن القوانين اللازمة لحمايتها وصيانتها .

وهناك بعض المدن ، في اقطار اسلامية وغير اسلامية ذكر انها كانت او ما زالت تحتفظ بالمصحف

الذي افرد بكتابته عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين .

ومن المعروف ان عثمان بن عفان ، في سنة ٢٥ او ٣٠ هجرية كلف لجنة رباعية مؤلفة من زيد ابن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، واعطاهم الصحف التي فيها القرآن وكانت عند حفصة بنت عمر بن الخطاب (زوجة النبي محمد صلى الله عليه وسلم) وامرهم بان ينسخوها في عدة مصاحف وقال لهم : ما اختلفتم فيه انتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش فانه نزل بلسانهم . وكان عدد النسخ التي كتبها الصحابة المذكورون سبعة ، على ارجح الاقوال . وقد ارسل منها نسخة الى كل من مكة المكرمة ، والشام ، واليمن ، والبحرين ، والبصرة ، والكوفة وحبس بالمدينة نسخته الخاصة التي سميت من يومئذ « المصحف الامام » والاصل في هذه التسمية حسب ما ذكر مصطفى صادق الرافعي في هامش كتابه : اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ما جاء في بعض الروايات من ان عثمان لما بلغه اختلاف القراء في القرآن ، قال : عندي تكذبون وتلحنون فيه ، فمن نأى عني كان اشد تكذيبا واكثر لحنا ، يا اصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس « اماما » ثم امر عثمان باتلاف كل ما عدا هذه النسخ مما كان موجودا عند الناس وامر باحراقه خوفا من تعدد النصوص التي يمكن ان تصبح في المستقبل مصدرا للاختلاف ، وانما اراد هذا الخليفة الراشد بذلك حسم مادة الاختلاف منذ البداية لانه امر يتضاعف بامتداد الزمن ويكون عرضة لاستغلال اهل الزيغ والراغبين في الفرقة والفتن .

اما المصحف الذي كان بحوزة حفصة بنت عمر ابن الخطاب زوجة النبي صلى الله عليه وسلم والذي عليه كان الاعتماد الرئيسي في جمع القرآن في نسخة واحدة فان عثمان رده اليها بعد ان انجزت اللجنة المكلفة عملها ، وكان قد وعدها بذلك قبل استعارته منها ، فوفى بوعده الا انه قرر احراق المصحف المذكور بعد وفاة صاحبته . وهذا ما حصل بالفعل ، فانه لما توفيت حفصة سنة ٤٥هـ (٦٦٥م) في خلافة معاوية بن ابي سفيان امر اخوها عبدالله بن عمر ان يحرق المصحف الذي كان عندها . وهناك رواية بان الذي احرق المصحف هو مروان بن الحكم والي المدينة . وكانت وفاة حفصة فيها . ومروان هو الذي صلى عليها وشيعها وحمل سريرها مع الناس وجلس حتى فرغ الناس من دفنها بمدافن البقيع في المدينة . اما لماذا ارجأ عثمان احراق مصحف حفصة الى ما بعد وفاتها فالجواب أتى من الشيخ محمد ابو زهرة الذي قاله في كتابه : المعجزة الكبرى القرآن«وهو :»نقول في الجواب عن ذلك ان المصحف اودع حفصة رضى الله عنها وعن ابيها لانها كانت حريصة على ان ان يبقى عندها . وما اراد الرجل الطيب عثمان ان يحرمها مما ارادت فأعاده اليها . ولكنه الحريص على القرآن،خشي ان يقع في يد أحد، فيمحو فيه ويثبت ، ويقول قد غير ما عندكم وها هو ذا الاصل ، فاحتكموا اليه ، ويكون صالحا للاحتكام ، فأمر بان يحرق بعد وفاتها وما ابقاء عندها في حياتها الا مرضاة لها ، فاحتاط للقرآن وما اعنتها .

هذا ، وان عثمان بن عفان اثار موضوع جمع القرآن في نص رسمي واحد بين دفتي كتاب واحد هو حذيفة بن اليمان ايام غزوة ارمينيا واذربيجان وقد تم الجمع فعلا سنة ٢٥هـ (٦٤٥م) .

ومنذ ذلك الحين اصبح ، « المصحف العثماني» او « مصحف عثمان » هو النص الوحيد المعتمد عند المسلمين نظرا لاجماع اهل الحل والعقد من الصحابة على دقته وصحته .

المصحف الموجود اليوم في طشقند عاصمةاوزبكستان بالاتحاد السوفياتي

يعتقد اخواننا المسلمون في الاتحاد السوفياتي ان المصحف الموجود اليوم في مكتبة الادارة الدينية (الاسلامية) في طشقند هو نفس النسخة الاصلية التي كتبت في ايام الخليفة عثمان بن عفان وهم يسمونة المصحف العثماني ويشاركهم في هذا الاعتقاد بعض العلماء من خارج الاتحاد السوفياتي . وجدير بالذكر ان ما يقوله المسلمون السوفيات بالنسبة لما يدعونه من حيازتهم لمصحف عثمان كذلك سببه ان الناس في كل مكان وزمان حريصون على تشرفهم بحيازة هذا الاثر الثمين من تراثهم الاسلامي ومن خلال هذا الحرص يتوهمون ان كل مصحف مكتوب بالخط الكوفي على الرق لا بد وان يكون هو نفس النسخة التي كتبت في ايام عثمان ولو لم تكن في الواقع كذلك ومن جملة العلماء المسلمين الذين يشاركون المسلمين السوفيات بنسبة مصحف طشقند الى عثمان بن عفان العالم الفلسطيني المحقق عبدالله مخلص المولود في عينتاب من اعمال حلب ١٢٩٦هـ (١٨٧٨م) والمتوفي بفلسطين ١٣٦٧هـ (١٩٤٧م) ، فقد نشر هذا العالم بمجلة الكشاف البيروتية الصادرة بتاريخ ربيع الاول ١٣٤٨هـ

(ايلول ١٩٢٩م) مقالا عنوانه مصحف عثمان قال فيه :

« اول ما اهتدى الباحثون الى نسخة القرآن الثمينة العريقة في القدم كان عام ١٢٨٦هـ (١٨٦٩م) في مدينة سمرقند . وقد حفظت هذه النسخة القديمة النفيسة في مكتبة سان بطرسبورغ (لينينغراد اليوم) الامبراطورية العامة ، وكان أول من احضرها حاكم تركستان العام الجنرال «كوفان» قالوا وكانت قد قدمت هذه النسخة هدية من آسيا الصغرى الى « كوجا » التركستاني الشهير الذي ولد عام ١٤٠٣م (٨٠٦هـ) قدمها له احد الباحثين من رجال الدين ثم نقلت الى تركستان بفضل واهتمام الفاتح العظيم « تيمورلنك » . وهذه النسخة كبيرة القيمة عظيمة الخط لانها مكتوبة بخط عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين . وقد كتبت كلها بيده . ومن هنا تتجلى للقارىء نفاسة هذه النادرة المعدومة المثال التي جمعت بين جلال القدم وجلال الكاتب .. » . هـ .

واننا مع تقديرنا لهذا العالم الفلسطيني الجليل نرى في كلامه مالا يصح قبوله لاسيما فيما يتعلق بقوله ان النسخة السمرقندية مكتوبة بخط الخليفة عثمان بن عفان نفسه ، وهو قول لم يسبق اليه احد من المحققين الذين ارخوا للمصحف المذكور ، فلقد أجمع هولاء المحققون على ان عثمان كلف بعض الصحابة بكتابة المصحف وانه هو شخصيا لم يفعل شيئا من ذلك .

واما فيما يتعلق بما اكده عبدالله مخلص عن نسبة هذا المصحف الى ايام الخلفاء الراشدين قبل نحو ١٤ قرنا فانه اعتمد فيه على المستشرق الروسي شبونين الذي انكب على دراسته عندما كان عضوا «بجمعية الآثار الامبراطورية» وراى ان هذا المصحف كتب بالعهد الأول من الاسلام كما يستدل من خطه والرق الذي كتب عليه .

في حين ان المستشرق الروسي كراتشكوفسكي Kratchkovski (١٨٨٣هـ ـ ١٩٥١م) لم يكن من رأي زميله ومواطنه شبونين ، وانه نشر مقالا عن هذا المصحف المذكور في اوائل القرن الثاني للهجرة (أي من عام ٧٣٢هـ ـ ٨١٤م) .

ولم يكن كراتشكوفسكي الشخص الوحيد الذي نفى نسبة المصحف الموجود اليوم في طشقند الى عثمان بن عفان ، فلقد فعل ذلك ايضا العلامة شهاب الدين المارجاني القزاني مؤلف كتاب «ناظورة الحق في فرضية العشاء وان لم يغب الشفق » وغيره فقال هذا العلامة في كتابه « الفوائد المهمة » : ومن الاكاذيب ما اشتهر بين اهالي سمرقند وبخارى وغيرهما من ان المصحف الامام هو المصحف الذي في مدينة سمرقند في مدرسة الاحرار ، وانه حمله جده ابو بكر القفال الشاشي من بغداد الى بلده ، وتوارثه اولاده الى ان وصل الى الشيخ عبيدالله (احرار ، فوضعه في مدرسته ، فان هذا المصحف ، وان كان من الآثار القديمة المتبركة ، لكن ليس هو بالمصحف الامام لدلائل تشهد بذلك ، ومن هذه الدلائل التي ذكرها المارجاني : ان ابا عبيد (القاسم بن سلام (بتشديد اللام) الهروي) نسبة الى هراة المتوفى ٢٢٤هـ (٨٣٨م) ذكر ان كلمة « لا » وقعت فيه (أي في مصحف عثمان الحقيقي) اخر السطر وكلمة «حين» في صدر السطر الاخر ـ يقصد كلمة لات حين مناصر) واني ـ الكلام للمارجاني ـ محضت هذا المصحف ا ذهو بسمرقند ، فوجدت الكلمة على خلاف ما ذكره فان « التاء » ليست بمتصلة ولا واقعة كلمة « لا » في آخر السطر ولا كلمة « حين » في اوله وقد حمل هذا المصحف الى مدينة بطرسبورج عند استيلاء الروس على مدينة سمرقند سنة خمس وثمانين ومائتين والف الهجرية (١٨٦٨م) وتلقوا ـ أي الروس ـ هذا الكذب منهم ـ أي من اهل سمرقند ـ وكتبوه في الجرائد وادرج رد ذلك في بعض جرائد القسطنطينية بالقاء مني (هذه الجرائد هي : حقائق الوقائع عدد ربيع الاول ١٢٨٩هـ ، بصيرة عدد صفر ١٢٨٩هـ ، جريدة الحوادث عدد ذو الحجة ١٢٨٨هـ) هذا وان الشيخ اسماعيل مخدوم مؤلف كتاب « تاريخ المصحف العثماني في طشقند » الذي نقلنا عنه كلام المارجاني اورد بهذه المناسبة النص الحرفي للرسالة التي ادرجها المارجاني في الجرائد المذكورة ونحن ننقلها هنا بكاملها للفائدة التاريخية ، قال المارجاني :

« بعد التحية ، لقد كان في داخل سمرقند في مدرسة منسوبة الى الخواجة عبيدالله الاحرار ، مصحف قديم مكتوب على رق حيوان بالخط الكوفي ، وما كان فيه من علامات الحروف والاعراب والوقوف والايات واسماء السور وغيرها شيء ، وفي أواخر الصفحات حمرة على لون الشفق يقولون انه دم يزعم اهالي بخارى وسمرقند ان هذا المصحف هو المصحف الامام الذي كان لعثمان نفسه رضي الله عنه ، وقد نقله الروس حين استولوا على سمرقند الى بطرسبورج وكتبوا مرارا مفتخرين « بان هذا مصحف المسلمين الام » وحتى ان علماء هم لايقدرون قراءته . وهذا المصحف وان كان من الآثار القديمة ليس بالمصحف الامام فيما اظن وقد كنت نظرت فيه

وقراته حين وردت سمرقند سنة ١٢٦٠هـ (١٨٤٤م) وقد كتبت قبل هذا خمسة عشر سنة في كتابي : «وفيات الاسلاف» في ترجمة ملا عبدالرحيم بن عثمان الاوتوز ايماني المتوفى سنة (١٢٥٠هـ ـ ١٨٣٤م) ما جزمت من امر هذا المصحف . وها انا بعثت اليكم بالترجمة برمتها فلو نشرت في الجرائد ومجاميع الفنون لكان احسن اذ فيه الجواب الكافي عما تفتخر به الروس . لقد قراته ، انا والشيخ الاوتوزايماني، وعلمنا ان المصحف ليس بذاك المصحف الامام . فلو اتيح ان تنشر في وقت ما ، تتفضلون بارسال عدة نسخ من ذلك الى هذا الجانب . فان الروس سألوا سفير امير بخارى « يحيى خواجة » عن هذا المصحف وهو اجاب من غير تثبت وتريث بانه المصحف الامام ، فكتبوا هذا ايضا في الجرائد انتهت رسالة الشيخ المارجاني .

للشيخ المارجاني كتاب اسمه «وفيات الاسلاف» قال فيه : « حين كتبت ترجمة الشيخ عبدالرحيم ابن عثمان الاوتوز ايماني المتوفي ١٢٥١هـ قلت في هذا الكتاب ان الشيخ عبدالرحيم المذكور لما زار سمرقند راي هذا المصحف محتاجا الى الاصلاح فأصلح الاوراق والخطوط وكتب الصحايف الساقطة من جديد واصلح المواضيع المخرومة ولم يأل جهدا فيما عمل ان يكون كالاصل . وهذا المصحف كان موجودا في اوائل العصر التاسع في القاهرة بعد زمان ابي بكر القفال الشاشي وحتى بعد الشيخ عبيدالله الاحرار بكثير ، ذكر هذا ابن الجزري وغيره » .

وفي اوائل هذا القرن قام الشيخ موسى جارالله روستوفدوني صاحب كتاب « تاريخ القرآن والمصاحف المطبوع في بطرسبورج ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م) بزيارة الى سمرقند وغيرها من بلاد « ما وراء النهر » والف كتابا عن مشاهداته في هذه الزيارة سماه (السياحة فيما وراء النهر) ذكر فيه ان المصحف المحفوظ اليوم ـ اي في ايام المؤلف ـ في بطرسبورج الذي يعتقد انه مصحف عثمان رضي الله عنه ، كان اولا في هذا المسجد (مسجد الخواجة الاحرار بسمرقند) قال المؤلف : وكنت قد زرت هذا المصحف المبارك اثناء زيارتي بطرسبورج وعلمت يقينا انه ليس هو « المصحف الامام » لانه كبير الحجم والمصحف الامام كان على ما قال العلماء قدر صفحتي اليدين وطوله زائدا عن ذلك شيئا . ذكروا ذلك في الكتب ، فعلى هذا يكون مصحف عثمان رضي الله عنه اكبر بيسير من مخطوطاتنا العادية . لا على قدر المصحف المحفوظ في مكتبة بطرسبورج ابدا . ثم ان مصحف عثمان رضي الله عنه تغيب بعد شهادته عن الوجود ، وليس له خبر ، الا ان بعضهم قال انه كان عند ابنه خالد ، ولا يعلم اين ذهب بعد ذلك .

وما دمنا قد نقلنا فيما تقدم وجهة نظر المتشككين بصحة نسبة المصحف الموجود اليوم في طشقند الى الخليفة عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين فان امانة البحث العلمي تقتضينا نقل وجهة نظر الذين قالوا بصحة هذه النسبة او انهم على الاقل رجحوها. من هؤلاء جعفر الحسني رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق سابقا الذي كتب في مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٣٩ ـ شعبان المعظم ١٣٨٣هـ ـ كانون الثاني ١٩٦٤م) تحت عنوان « مصحف عثمان » تعليقا على مقال بنفس العنوان كتبه الدكتور عبدالرحمن الكيالي في نفس المجلة (المجلد ٣٨ جزء ٤) قال الحسني :

« سمعت بحديث المصحف الذي كان في جامع الخوجة احرار بسمرقند ولم يتيسر لي رؤيته واعتقد ان كاتب المقال اكتفى بنقل رواية اهالي سمرقند دون ان يدعم هذا الزعم بحجة علمية ... ويستدل من حجم هذا المصحف ووزنه انه لم يكن للتداول ، اذ لا يتسع له حجر القارىء ويصعب حمله ونقله ، وارجح انه كان كغيره من المصاحف الكبيرة من الامهات التي يعتمدها نساخ المصاحف » .

وكان الدكتور عبدالرحمن الكيالي قد تحدث في مقاله الذي علق عليه جعفر الحسني عن المصحف الذي كان في قلعة حمص وتداولته الايدي الى ان انتهى به المطاف الى الاستانة حيث حفظ في متحف الاوقاف الاسلامية والذي نسب هو الاخر الى الخليفة عثمان بن عفان وعليه آثار دمه عند اغتياله، وانهى الدكتور الكيالي مقاله بقوله :

« وهل يعقل ان يكون لسيدنا عثمان مصحفان عليهما آثار شهادته : واحد في سمرقند وواحد في الاستانة ؟ » .

اما الشيخ اسماعيل مخدوم صاحب كتاب « تاريخ المصحف العثماني في طشقند » ، وهو من اعيان العلماء المسلمين المعاصرين في الاتحاد السوفياتي ، فانه يجزم بأن هذا المصحف هو نفس المصحف الذي استشهد عثمان بن عفان وهو يقرأ فيه وذلك حيث قال في ختام كتابه المذكور : « يحق لنا ان ندعي ان مصحفنا احد المصاحف العثمانية » وقد قيل المثبت مقدم على النافي ... والله سبحانه اعلم » ا . هـ .

نسخة المصحف العثماني في طشقند وهل هي مصورة عن الاصل ام هي نفس الاصل ؟

هذا التساؤل لابد انه يراود اذهان الناس في ايامنا ، لا سيما ان المصحف العثماني قد تعاورته الايدي عشرات المرات كما انه تنقل عبر عشرات المدن قبل ان يستقر في طشقند ويشتهر امره بين الخاص والعام .

يقول عبدالله مخلص في مجلة الكشاف البيروتية التي أشرنا اليها من قبل :

« قامت الثورة في سنة ١٣٣٥هـ (١٩١٧م) فاسرع مسلمو الروسيا الى طلب هذه النسخة ـ وكانت في بطرسبورغ ـ لانهم احق بها من غيرهم . فأجيب الى طلبهم وارسلت اليهم النسخة بناء على ذلك لينقلوها الى تركستان ... ولكن هذا الحلم الجليل لم يتحقق ، فقد فقدت هذه النسخة في الطريق ولم يعلم احد مقرها بعد ذلك » .

ويتابع عبدالله مخلص كلامه بلهجة المفجوع بعزيز الذي يعزى نفسه ببقاء البديل عن هذا العزيز فيقول : « .. ولم يبق للناس الاعزاء واحد عن هذه الخسارة الجسيمة التي يشعر بها كل من يقدرها ـ ذلك هو التعزي بالنسخة الباقية المأخوذة عنها بوساطة رجال جمعية الآثار في سان بطرسبورج (لينينغراد) في ٢٦ ـ مايو ـ أيار ١٩٠٤ (١٣٢٢هـ) وقد كتب عليها مدير الجمعية امضاءه لاعتمادها . وعلى الصفحة الاولى من هذه النسخة ، العنوان مكتوبا بالروسية والفرنسية كما يلي :

« القرآن بالخط الكوفي من سمرقند . نقلت عن النسخة الاصلية التي كتبها الخليفة عثمان ثالث الخلفاء بخط يده (٦٤٤ ـ ٦٥٥م) وهي النسخة المحفوظة بمكتبة بطرسبورج الامبراطورية العامة . وقد نقلت هذه النسخة بتصريح من جمعية الآثار في بطرسبورج بوساطة المسيو بيزاريف ، وتم ذلك في بطرسبورج (١٣٢٣هـ ـ ١٩٠٥م) .

وهنا لابد من الملاحظة بان التاريخ الذي سجل في هذه الوثيقة ليس دقيقا وذلك خلافا لما عرف عن المستشرقين من الدقة في التحقيق . ذلك ان عثمان ابن عفان ولي الخلافة سنة ٢٤هـ(٦٤٤م)وقتل سنة ٣٥هـ(٦٥٦م) وكان جمع القرآن في السنة التالية من ولايته اي سنة ٢٥هـ (٦٤٥م) ولقد اشرنا من قبل الى ان عثمان امر بجمع القرآن ولم يكتبه بيده ، وان الذين فعلوا ذلك هم اعضاء اللجنة الرباعية التي ألفها لهذا الغرض ، وقد ذكرنا اسماء اعضائها من قبل .

ويقول عبدالله مخلص في التنويه بهذا العمل العلمي الذي مكن المؤرخين من متابعة موضوع المصحف المذكور الى هذه الايام :

« . . . بذلت العناية الفائقة في طبع هذه النسخة مع الاحتفاظ بالالوان الاصلية التي امتازت بها النسخة الاولى في فواصل الآيات ، فجاءت آية من آيات الابداع والافتنان ، وهي تقع في ثلاثماية وثلاث وخمسين صحيفة حجم كل منها ٩ سنتيم في ٦٩ سنتيم وزنة النسخة الواحدة ١٨ كلغ وغلافها الى جمال الرونق متانة الصناعة وقد طبع على الغلاف الجملة الآتية : « طبع منها خمسون نسخة فقط . تباع منها خمسة وعشرون فقط وثمن كل واحدة مائة جنيه » . وهكذا فاننا نستنتج من هذه الوقائع ان المصحف الموجود اليوم في طشقند هو النسخة المصورة عن المصحف القديم الذي ضاع ولم يعلم احد مقره حتى الان . وفوق كل ذي علم عليم .

الرحلة التاريخية للنسخة الموجودة من مصحف عثمان في طشقند

لابد من الاعتراف بأن الحكايات التي تناقلها الكتاب عن المراحل التي مرت على المصحف العثماني قبل استقراره نهائيا في طشقند هي اقرب الى التقاليد الشعبية منها الى الحقائق التاريخية . وان المرء ليجد نفسه في حيرة من امره اذا أراد اختيار الصحيح منها وابعاد الرقائف . على ان هذا لا يمنعنا من ايراد بعض هذه الحكايات على سبيل الرواية لكي تكتمل دراستنا هذه من جميع جوانبها وفق المعطيات التي تساعد العلماء الذين يأتون من بعدنا على استخلاص الحقيقة من خلال هذه الفسيفساء من المعلومات « القلقة » والمشوبة بما تداخلها من العواطف الشخصية لرواتها . ونبدأ مسيرتنا في رحلة مصحف طشقند مع خطواته الاولى التي تحدث عنها ابن قتيبة واسمه ابو محمد عبدالله بن مسلم واشتهر بابن قتيبة الدينوري ، وانما سمي الدينوري لانه كان قاضي دينور . توفي ٢٧٦هـ (٨٨٩م) قال هذا المؤرخ في كتابه عيون الاخبار (في التاريخ وشؤون الحكم والاداب الاجتماعية) : ان المصحف الامام الذي قتل عثمان رضي الله عنه وهو في حجره ورثه عنه ابنه خالد ، وعن خالد ابناؤه ، وقد قال لي بعض المشايخ من اهل الشام ان ذلك المصحف الان في ارض طوس . وعندما راجعت معجم

البلدان لياقوت الرومي الحموي وجدته يذكر طوس التي في بلاد العجم وبعدها يذكر طوس التي هي : من قرى بخارى التي ينسب اليها عدد من اهل العلم منهم : ابو جعفر رضوان بن عمران الطوسي من اهل بخارى ، روى عن اسباط بن اليسع وابي عبدالله بن ابي حفص وروى عنه خلف بن محمد بن اسماعيل الخيام .

ولا ندري ما اذا كان ابن قتيبة يذكر وجود مصحف عثمان بطوس بخارى او بطوس العجم ، واغلب الظن ان المقصود هنا هي طوس بخارى وهو ما امكننا استنتاجه من الوقائع التالية : جاء في كتاب رحلة ابن بطوطة المسماة « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » قول صاحب الرحلة تحت عنوان « مدينة البصرة » : واهل البصرة لهم مكارم اخلاق وايناس للغريب وقيام بحقه فلا يستوحش فيما بينهم غريب . وهم يصلون الجمعة في مسجد امير المؤمنين علي رضي الله عنه الذي ذكرته،يسد فلا يأتونه الا في الجمعة ، وهذا المسجد من احسن المساجد وصحنه متناهي الانفساح مفروش في الحصباء الحمراء التي يؤتى بها من وادي السباع وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان رضي الله عنه يقرأ فيه لما قتل وأثر تغيير الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » نقول ، وكانت وفاة ابن بطوطة في سنة ٧٧٧هـ (١٣٧٥م) .

ويقول محمد امين الخانجي في كتابه « منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان » ، وهو ذيل لمعجم البلدان الذي الفه ياقوت الحموي الرومي ، في معرض كلامه عن هذا المصحف الذي رآه ابن بطوطة في مسجد علي ابن ابي طالب بالبصرة : « .. والمصحف المذكور سلب بعد ذلك من البصرة ونقل الى سمرقند ومنها الى الروسيا وهو الآن في مكتبة بطرسبرج الملكية . » . ومحمد امين الخانجي كان حيا في الثلاثينات من القرن الحالي الميلادي واذا كان ما يقوله المؤلف مستندا الى مصادر وثيقة فهذا يعني ان القول بوصول المصحف الى الروسيا ليس بمستبعد .

وجاء في كلام المؤرخين ومنهم النويري في كتابه « نهاية الارب » ان السلطان الملك الظاهر بيبرس البند قداري ، من سلاطين المماليك المتوفي ٦٧٦هـ (١٢٧٦م) كان على علاقة طيبة مع الملك بركة خان المتوفي (١٢٦٦م) الذي كان ابوه جوجي بن جنكيزخان وقال ابن تغري بردى في كتابه « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » : هو ـ اي بركة خان ـ كانت مملكته عظيمة متسعة جدا وهي بعيدة عن بلادنا وله عساكر وافرة العدد . وكان بركة هذا يميل الى المسلمين ميلا زائدا ويعظم اهل العلم ويقصد الصلحاء ويتبرك بهم ، ووقع بينه وبين ابن عمه هولاكو وقاتله بسبب قتله للخليفة المستعصم بالله وغيره من المسلمين ، وكان بينه وبين الملك الظاهر مودة ويعظم رسله . وكان قد أسلم من جنده وبنى المساجد واقيمت الجمعة في بلاده ، وكان جوادا عادلا .. « ومما يذكر ان السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري » رسم بتجهيز الهدايا الى الملك بركة خان بعد تحرير رسالة قرئت عليه ، وكانت الهدايا عبارة عن ختمه (اي مصحف كامل) ذكر انها من خط عثمان بن عفان رضي الله عنه ... قال النويري : ذكر انها من المصاحف العثمانية بغلاف اطلس احمر مزركش ضمن درج آدم مبطن بعتابي (نوع من الحرير) وكرسي لها من العاج والآبنوس مخرم بسقط فضة .. الى آخر ما قالوا ...

قال الشيخ محمد مراد ابن عبدالله الرمزي البلغاري ثم المكي (المتوفى ١٩٤٠م في التركستان الشرقية) في كتابه : تلفيق الاخبار في تاريخ قزان والبلغار الذي ذكر فيه اخبار بيبرس وبركة خان : « . . والمصحف الذي اشتهر بأنه مصحف سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وجلبوه من سمرقند الى بطرسبورج واودع في كتبخانة الامبراطورية ، لا يبعد ان يكون هو هذا المصحف بأن حملة تيمورلنك من « سراي » الى « سمرقند » عند حروبه مع نوقتامش خان واستيلائه على « سراي »، وهذا الاحتمال قريب فلا وجه لاستبعاد البعض اياه من غير دليل يستند اليه قال الشيخ اسماعيل مخدوم في كتابه « تاريخ المصحف العثماني في طشقند » : وقد حمل هذا المصحف الى مدينة سمرقند سنة ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م) . وما دمنا قد ذكرنا اقوال المؤرخين القدماء حول وصول هذا المصحف الى بلاد الروسيا ، وهي كما اشرنا من قبل اقوال مرتبكة اختلطت فيها الاسطورة بالحقيقة فاننا نختم هذا الاستعراض للرحلة التاريخية التي قام بها هذا المصحف عبر العباد والبلاد ، بالكلمة التي نشرها الدكتور عبدالرحمن الكيالي من اعيان مدينة حلب وعلمائها ونحن ننقلها من مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٣٨ ، الجزء ٤) وقد جاء فيها قول الكاتب المذكور :

. . . قرأت في مجلة (بلاد السوفيات) الصادرة في ٥ نيسان ١٩٦٣ مقالا عنوانه « مخطوط منذ ١٣٠٠ سنة » استرعى انتباهي وهو كما يلي :

(لا ينجدنا التاريخ بمعلومات محققة عن الظرف الذي وجد بها في مدينة « سمرقند » هذا المخطوط القديم المعروف باسم « مصحف عثمان ») .

تقول الروايات ان القرآن قد جمعه الخليفة عثمان بن عفان الخليفة العربي الثالث شخصيا لاكثر من ١٣٠٠ سنة خلت ، وعندما قتل عثمان كان المصحف بيده فانتشر الدم عليه ، وحمل القرآن الى سمرقند بعد حملة مظفرة قام بها تيمورلنك جلب منها من جملة ما جلبه هذا المصحف ووضعه في مكتبته . وتقول رواية اخرى ان المخطوط قد جلبه الى سمرقند (ولي الله حاج أحرار القسطنطيني) الذي حصل عليه كهدية لقاء شفائه احد الخلفاء.

ومهما يكن من امر ، فعندما غزت قوات القيصر الروسي تركستان كان مصحف عثمان موجودا في سمرقند في مكتبة مسجد هذا الولي وفي سنة ١٨٦٩م ارسل الجنرال فون كاوفمان هذا المخطوط النادر الى « بطرسبورج » . اما الدواعي لذلك ، فيقول الجنرال :

« ان قرآن المسلمين هذا ليست له اية قيمة لانه معتبر كوثيقة رسمية تخص امراء بخارى ولا يستطيع احد قراءته وهو موجود هناك منذ مئات من السنين ولا يصلح لشيء » ! ! .

وظل المصحف في بطرسبورج اكثر من نصف قرن الى ان كانت الثورة الاشتراكية فطلب مسلمو روسية من « لينين » ان يعيده الى مالكيه القدماء ومع انه كان غارقا في مشاغل الدفاع عن الثورة وانهاض الاقتصاد الوطني الذي هدمته الحرب ، فقد وجد من الوقت متسعا لدراسة طلب المؤمنين باهتمام ، واعيد المصحف اليهم .

وهنا نتوقف قليلا عند خبر يتعلق بمصير هذا المصحف بعد وصوله الى بطرسبورج ساقه صديقنا الدكتور الشيخ صبحي الصالح من اهالي طرابلس الشام والاستاذ بالجامعة اللبنانية في بيروت قاله في كتابه « مباحث في علوم القرآن » وهو يتحدث عن المصحف : « ويميل بعض الباحثين الى ان هذا المصحف امسى زمنا في حوزة قياصرة الروس في دار الكتب بلينينغراد ، ثم نقل الى انكلترا » .

الا ان مؤلف كتاب « تاريخ المصحف العثماني في طشقند » وصف ما قاله الدكتور الشيخ صبحي الصالح في كتابه المذكور بانه « كلام خليط » .

وفي مقال نشره توما ديبو المعلوف ارشدياكون البطريركية الانطاكية في مجلة المجمع العلمي العربي (ج ع ١٩٢٤ تحت عنوان « اللغة العربية في المملكة الروسية » قال : « وقد طلب المسلمون المصحف بعد شبوب نار الثورة فأجابتهم اليه حكومة كيرنسكي وهي الحكومة المؤقتة ، فنقل باحتفال لائق الى مدينة « أوفا » مركز الفتوى الاسلامية في بلاد الشمال .

لينين هو الذي استجاب لطلب مواطنيه المسلمين برد مصحفهم اليهم

في اوائل عهد الثورة الاشتراكية . وفي ايام الحكومة المؤقتة بالذات تحركت قوة من المسلمين في فيالق (برئيوبراز) بقصد اخراج مصحف عثمان من مكتبة لينينغراد بالعنف ولكن هذه الحركة اوقفت وكان اسس بعد ثورة اوكتوبر الاشتراكية في ذلك الحين « الشورى الاسلامية » المحلية في بطرسبورج ، فكلفت هي بالاهتمام بمصير هذا المصحف . فقررت تقديم طلب رسمي الى الحكومة الجديدة لاسترداده بالوسائل الشرعية والقانونية . فلما وصل هذا الطلب الى « لينين » بادر فورا الى اصدار امره باخراج هذا المصحف الثمين من المكتبة العامة وتأمين ايصاله للمسلمين اصحابه الشرعيين . وفيما يلي النص الحرفي الرسمي الذي تضمنه الكتاب الموجه من قبل لينين الى اناطولي وسيليويج لوناجارسكي في مجلس الشعب وذلك بتاريخ ١٩١٧/١٢/٩ .

نص هذا الكتاب :

الى قوميسور الشعب في شؤون المعارف اناطولي وسيليويج لوناجارسكي ١٩١٧/١٢/٩م بطرسبورج

« انه قدم الى مكتب قوميساريات الشعب مكتوب رسمي من «الشورى الاسلامية المحلية لمسلمي بطرسبورج يطلب فيه باسم مسلمي روسيا جميعا اعادة المصحف العثماني المقدس الذي هو محفوظ في المكتبة العمومية للدولة الى ايدي المسلمين . ان مجلس الشورى الاسلامية احال تنفيذ هذا القرار الى رئيس الشورى عثمان هدايتويج توقبيتوف رئيس الشورى الحربية لجميع مسلمي روسيا والى كريم محمد يويج سيكيتوف عضو البرلمان الملي .

ولذا ، فان مجلس قوميساريات الشعب قرر اعطاء المصحف العثماني المقدس المحفوظ

في المكتبة العمومية من غير تأخير الى اختيار الشورى الاسلامية ، وبناء على ذلك يلتمس ان يصدر أمركم المتعلق بذلك .

رئيس قوميساريات الشعب
و.ا. اوليانوف لينين

رحلة المصحف الاخيرة من اوفا الى طشقند

ان أهل اوفا وما والاها من بلاد بشكيريا وبلاد التتارستان اعتبروا ان نجاحهم في استخلاص المصحف من عهدة الحكومة المركزية وايداعه في ادارتهم الدينية ، يخولهم الحق في ان يحتفظوا بهذا الأثر الاسلامي بصورة دائمة . على ان ما كان يدور في أذهانهم كان يدور نقيضه في أذهان السكان المسلمين في مناطق تركستان مثل بخارى وسمرقند وطشقند وفرغانة . فهؤلاء السكان يعتبرون انهم هم اهله الوارثين له بحكم الاسبقية التاريخية ، واشتد تنافس الفريقين على هذا المصحف حتى كاد الامر يتحول من ميدان الكلام والمراجعات الى ساحة العراك والتقاتل لولا ان لينين تدخل في الوقت المناسب وحسم الأمر لصالح الاوزبكيين وكان ذلك في ١٩٢٣م . وفي السنة التالية أي ١٩٢٤م ذهب وفد من علماء المسلمين في طشقند ممثلا للادارة الدينية في هذه المدينة قاصدا الى أوفا حيث تسلم أعضاوءه المصحف الشريف بموجب احتفال مهيب شارك فيه علماء باشكيريا الذين نزلوا عند رغبة لينين في اعادة المصحف الى وارثيه القانونيين وفي ٢٨ آب (اغسطس) من السنة المذكورة حمل علماء طشقند المصحف على رؤوسهم ودخلوا به الى قاعة خاصة وبقي في هذه القاعة الى سنة ١٩٢٦ ، ففي هذه السنة نقل الى « متحف الآثار » في طشقند بعد ان اصدرت الحكومة مرسوما باعتباره من الآثار القومية في البلاد . وما يزال هذا التراث الاسلامي العريق في مكانه بالمتحف المذكور الذي يحمل رسميا الاسم اكاديمية العلوم / الاوزبكية » وهذا المتحف قائم في جنب سوق الجباب وهو اول متحف من نوعه في اوزبكستان .

ضياع العديد من اوراق المصحف اثناء نقله وبعده

ان لهفة المسلمين في بلاد الروسيا على اقتناء بعض اجزاء المصحف العثماني لاجل التبرك بها حملت الكثيرين منهم على استلال بعض اوراقه او على الاقل ، بعض اجزاء من هذه الاوراق . وقد كثر مثل هذا العمل عندما كان هذا المصحف موضوعا في الجامع الكبير التابع للجمعية الاسلامية في طشقند وذلك قبل نقله الى حيث هو الآن في المتحف الذي اشرنا اليه قبل حين . ومن اصل ٣٥٣ ورقة لم يسلم من النهب والسرقة والتلف الا ١٥ ورقة فقط ، واما الاوراق الأخرى التي فقدت او تلفت فان المسؤولين استصنعوا المفقود ورمموا التالف . والاوراق المحفوظة هي من الجلد السميك الجميل المظهر والرشيق الصناعة ، وجهه صقيل بلون اصفر وقفاه مفضض ولونه ابيض .

وصف المصحف بمقاساته وعدد صفحاته وشكله

عندما كان المصحف في بطرسبورج حول ١٨٩٠م كان عدد صفحاته ٣٥٣ ورقة مضاعفة ، أرقامها ، ٧٠٦ ، وحجم كل ورقة بالمقاس التالي : ٢٨ سنتم طول و ٥٣ سنتم عرض بالاضافة الى ٦٩ صفحة بدل سقوط وحزم وقع فيها ، وهذه الاوراق من الكاغد العادي .

في كل صفحة من صفحات الـ ٣٥٣ يوجد نفس العدد من السطور المخطوطة وهو ١٢ سطرا . ومتناسبة تناسبا كليا .

ابعاد الصفحات هي ٦٨ × ٥٣ سنتم وكل ١٨ او ١٠ صفحات تؤلف ملزمة على حدة .

العناية بالمصحف

من اجل الحفاظ على حياة هذا الاثر الاسلامي الثمين فإن المسؤولين قد وضعوا له قواعد ادارية ومادية وفنية وهم يطبقونها بدقة متناهية وحزم بالغ ، وذلك لكي يحفظ هذا المخطوط اطول مدة ممكنة ويتمكن أبناء الاجيال القادمة من الاستمتاع ببركة مشاهدته .

وان هذا المصحف موضوع في داخل صندوق حديدي يدور بابه الفولاذي الضخم ببطء ويرى الانسان بداخله علبة من الخشب الثمين واناء من البلور الرقيق الشفاف المضمخ بالكافور . والكافور من المواد العطرية الطبيعية التي تحفظ من حشرة ضارة جدا لا يؤثر فيها الا الكافور . والذي يريد مشاهدة المصحف يكلف الموظف المختص ليقوم بهذا العمل ، واذا سحبت العلبة بعناية فانه يظهر بداخلها سفط من الجلد البني الداكن المغطى بالمخمل ، وفي داخل هذا السفط يوجد المصحف نفسه ، ولا يمكن اخراجه من الصندوق لان تعرضه للهواء يؤدي الى تغيير لونه وفساده ودائما تتكرر عملية التعقيم الوقائي لصيانة هذا الاثر الشريف وهذا التعقيم

الذي يتم بواسطه عقار كيمائي خاص يتكرر بصورة منتظمة وتخضع له جميع اوراق المصحف على يد موظف فني خاص .

صور طبق الاصل عن المصحف

كنا ذكرنا من قبل انه في سنة ١٩٠٥ قام المعهد الاركيولوجي في بطرسبورج باخذ عدة صور من المصحف بالفوتوغراف بعضها خصص للاهداء وبعضها خصص للبيع . ولما تأسست الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاخستان سنة ١٣٦٣هـ (١٩٤٣م) رأت هذه الادارة ان تعيد تصويره من جديد لكي تتيح الحصول عليه لاكبر عدد من المسلمين في العالم وحتى تتم الفائدة فانها كلفت أحد أعضائها البارزين وهو الشيخ اسماعيل مخدوم بأن يؤلف كتابا عن هذا المصحف وتاريخه واوصافه وموضوعه فقام هذا العالم بما عهد اليه ، جزاه الله خيرا واجزل مثوبته .

نادرة لطيفة :

في ختام هذه الدراسة التاريخية عن (المصحف العثماني في الاتحاد السوفياتي) أذكر انني عندما كنت في مدينة اوفا عاصمة باشكيريا دعاني فضيلة الشيخ عبدالباري ايسايف مفتي المسلمين في القسم الاوربي من البلاد السوفياتية وسيبيريا لمشاهدة احدى الورقات التي تحتفظ بها الادارة الدينية هناك وهي محفوظة في داخل خزانة ثمينة وجميلة ومغطاة بستارة خضراء وقال لي فضيلة الشيخ المذكور بأن هذه الورقة اخذت خفية من المصحف العثماني ، اثناء نقله من اوفا الى طشقند قبل نحو خمسين سنة . وذلك لان مسلمي اوفا يعتقدون بأن خلو مدينتهم من هذا الاثر الشريف يعرضهم للكوارث والمتاعب ، لذلك لجأوا الى استلال هذه الورقة من المصحف واحتفظوا بها في ادارتهم الدينية حيث وضعوها تحت الحراسة المشددة وهم لا يظهرونها الا في المناسبات الدينية الرئيسية وعندما يزورهم كبار الشخصيات من ضيوف الاتحاد السوفياتي .

المصاحف المخطوطة الاخرى في مكتبات الاتحاد السوفياتي

بعد ان رافقنا « المصحف العثماني » المنسوب الى عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين في رحلته الطويلة من خارج بلاد الاتحاد السوفياتي الى داخلها الى حين القينا عصا التسيار وانهينا هذه الرحلة عند طشقند حيث تركنا المصحف في خزانة متحف الآثار بهذه المدينة ، ها نحن اولا نستأنف التجوال في مكتبات الاتحاد السوفياتي ، الحكومية والاسلامية لتقديم فكرة واقعية عن بقية المصاحف المخطوطة الاخرى التي تحتفظ بها هذه المكتبات التي حصلت عليها في مناسبات مختلفة وعن طرق مختلفة ايضا .

المصحف في ايام كاترين الثانية امبراطورة الروسيا

في ايام هذه الامبراطورة سمعت بيروت هدير قنابل قرصانها الذين اقتحموا سورها الذي بناه احمد باشا الجزار ونصبوا مدافعهم النحاسية في سهلات البرج التي عرفت منذ ذلك الحين باسم ساحة المدافع (PLACE DES CANONS) . وهذه الامبراطورة التي تجاوبت مع طموح بني قومها في الوصول الى المياه الدافئة (البحر الابيض المتوسط) كانت تستخدم في بحريتها القبطان «كوكوفتسوف» (١٧٤٥هـ ــ ١٧٩٣م) مصنف كتاب المغرب (١٧٨٦ ــ ١٧٨٧م) والذي صدر عنه طبعة للقرآن الكريم تولت الانفاق عليها الامبراطورة المذكورة . ولاسباب سياسية كادت تمر هذه الطبعة دون ان يشعر بها احد في داخل الروسيا ، بالرغم من انها احدثت ضجة كبرى في جميع اقطار اوروبا في ذلك الحين . على اننا لا نستطيع بيان ما اذا كانت هذه الطبعة صورة طبق الاصل عن مصحف مخطوط ام انها كانت بالحروف الطباعية الحديثة . ومن سوء حظنا اننا عندما كنا نزور الاتحاد السوفياتي خلال شهر تموز ١٩٧٩م لم تتهيأ لنا الفرصة للاطلاع على هذه النسخة ونحن نرجو ان تواتينا الظروف المقبلة لتحقيق هذه الغاية العلمية المفيدة .

المصاحف المخطوطة في المكتبة العامة بلينينغراد

في ضاحية تسارسكوي سيلو القريبة من بطرسبورج (لينينغراد حاليا) نشأ خانيكوف (KHANIKOV) ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره حمل عصا الترحال قاصدا بلاد المسلمين مثل بخارى والقفقاس ثم وصل الى ايران حيث عين قنصلا لبلاده في مدينة تبريز التاريخية . ومن خلال تعرفه على المسلمين وبلادهم اتجه للعناية بالآثار الاسلامية والمخطوطات العربية والفارسية ولما عاد الى بلاده نقل اليها معه صورا من حملة نابليون على مصر للمصور الفرنسي مارسيل ومجموعة من المخطوطات الشرقية منها كتاب « ميزان الحكمة » ــ في الفلسفة ــ لمؤلفه ابو جعفر المعروف بالخازني ، من علماء القرن الثاني عشر للميلاد . وهو عجمي النسبة ، خبير بالحساب والهندسة وعالم بالأرصاد والعمل بها ــ وكذا قال

عنه القفطي في كتابه « اخبار الحكماء » . وقد نشر قسم من هذا الكتاب في المجلة الشرقية الاميركية ج ٨٥ ص ١٢٨ .

كما ان خانيكوف المذكور نقل معه كتاب « تاريخ الخلافة » للصولي ومجموعة اخرى من الكتب الشرقية ومن اهم ما قدمه لمكتبة بطرسبورج في حينه مجموعة من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفي . واننا نعتقد بان هذه المجموعة ما تزال موجودة بالمكتبة الوطنية الحالية في لينينغراد ، وربما كانت هي التي اطلعنا على بعض نسخها اثناء وجودنا في هذه المدينة خلال زيارتنا للاتحاد السوفياتي . وعندما يكون المصحف المخطوط موضوعا لحديثنا فلابد لنا من الاشارة مع الاشادة الى المستشرق كراتشكوفسكي (KRATHKOVSKI) الذي ملأ الدنيا وشغل أهل الفكر وعلماء العربية بما ألّفه او حققه او نشره من تراث العروبة والاسلام . واما بالنسبة الى المصحف المخطوط فان كراتشكوفسكي دون في نشرة مجمع العلوم مجموعة من مخطوطات القرآن الكريم لاوزبنزكي وذلك سنة ١٩١٧م بالاضافة الى المخطوطات العربية الاخرى التي أحضرها من القوقاز وقد وضع المخطوطات القرآنية والعربية يومذاك في القسم الآسيوي من متحف مجمع العلوم .

وان كراتشكوفسكي يستحق دراسة اوسع سنقدمها فيما بعد ان شاء الله عند كلامنا عن الاستشراق السوفياتي .

ـ واوزبنزكي (Uspenski) الذي ذكرناه في معرض كلامنا عن كراتشكوفسكي كان يملك مجموعة من المصاحف المخطوطة حصل عليها من مدينة طرابزون التركية وهي التي ما تزال موجودة في متحف مجمع العلوم الذي أشرنا اليه قبل حين .

ـ ومن نوادر مخطوطات القرآن الكريم في القرن السادس عشر الميلادي ما اهتمت به السيدة فيرا كراتشكوفسكايا زوجة كراتشكوفسكي التي كانت خبيرة بالنقوش الاسلامية وهي التي اصدرت مجلة « الكتابات الشرقية » ١٩٤٧م ، وتعتبر مجموعة نوادر مخطوطات القرآن المذكورة من اهم آثارها .

ـ وقبل ان نختم موضوع المصاحف المخطوطة بالاتحاد السوفياتي فانه لا يسعنا الا ان ننوه بالجهود التي يبذلها سماحة المفتي الشيخ ضياء الدين باباخانوف في الحفاظ على النسخ الكثيرة من المصاحف المخطوطة والمرصعة بالجوهر والمزينة بالذهب التي ترجع الى عهود قديمة وهو يعتز بوجودها في مكتبة الادارة الدينية في طشقند التي تلاقي كل ازدهار تحت رياسته في الوقت الحاضر . كما ان سماحته يحتفظ في هذه المكتبة بالعديد من نسخ المصحف «العثماني» المصورة التي يعرضها للزوار الكثيرين الذين يقصدون هذه المكتبة من داخل الاتحاد السوفياتي ومن خارجه ويحرصون على التبرك برؤية هذا المصحف الاثري الكريم .

وان بعض المصاحف المخطوطة الموجودة في مكتبة الادارة الدينية في طشقند تستعمل اساسا صالحا ومصدرا للطبعات القرآنية التي تصدرها هذه الادارة بين الحين والاخر . وعندما بدأت الجمعيات والادارات الدينية بممارسة نشاطاتها الاسلامية بمعاونة مجلس الاديان التابع للحكومة في موسكو فانها بادرت الى طبع القران الكريم بتصوير بعض المصاحف المخطوطة كما ان هناك عدة طبعات صدرت قبل ١٩١٧ م اعتمدت على الخط النسخي للمصاحف المخطوطة التي كانت موجودة بل ان بعض الاتقياء كانوا يكتبون بايديهم العديد من المصاحف مقلدين الخطوط النسخية في مخطوطاتها القديمة وذلك على عادة المسلمين في التقرب الى الله تعالى عن طريق كتابة المصحف . وقد ظلت هذه العادة قائمة حتى بعد ظهور الطباعة الحديثة وانتشار المصاحف المطبوعة او المصورة على احدث الوسائل الفنية . ويقول سماحة المفتي الشيخ ضياء الدين باباخانوف في كتابه « المسلمون في الاتحاد السوفياتي » ان هناك عدة نسخ من القرآن الكريم صدرت في العهد القيصري ، وهي مكتوبة باليد على اساس الخط النسخي المعروف بالبخاري .

ـ وفي سنة ١٩١٣م ، قبيل الحرب الكونية الاولى ، تم في طشقند طبع اول نسخة مصورة بالخط النسخي من القرآن الكريم اخذت عن المصحف الذي كتبه الخطاط الاوزبكي الشهير ميرزا خوجاندي وهو من ابناء هذه البلاد . وفي سنة ١٩٥٥م قامت الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان بمبادرة من الشيخ إيشان (احسان) باباخانوف ابن عبدالمجيد خان ، المفتي المفتي السابق لطشقند ووالد سماحة الشيخ ضياء الدين باباخانوف خليفته في هذا المنصب الاسلامي الكبير ، قامت هذه الادارة باعداد طبعة جديدة من القرآن الكريم حققتها لجنة من اشهر علماء الاسلام في الاتحاد السوفياتي الفت خصيصا للقيام بهذا العمل الجليل ، وهذه اللجنة

استحسنت طبع القرآن الكريم نقلا عن الأصل الصادر في مدينة قازان ١٩٠٨م . وقد انتهت الطبعة المذكورة ١٩٥٧م وهي مطبوعة على ورق جيد قدمته الحكومة السوفياتية لمواطنيها المسلمين بدون مقابل مساهمة منها في هذا العمل الصالح .

ـ وفي سنة ١٩٦٠ أصدرت الادارة الدينية لمسلمي طشقند وقازاخستان طبعة اخرى من القرآن الكريم وذلك عن الأصل الذي طبع به في القاهرة . وهذه الطبعة من حجم كبير ، وقد طبعت بمبادرة من سماحة الشيخ ضياء الدين باباخانوف حفظه الله . وفي آخر صفحاتها كتب باللغة التركية الاوزبكية العبارة التالية :

خاتمة الطبع

بحمد الله وتوفيقه ، اورثا آسيا وقازاخستان مسلمانلري دينية نظارتي نك تابشيريخي بيلهن اوشبو قرآن كريم تاشكند شهريده‌كي ع‌نجي باسمه خانه‌ده طبع ايتيلدي .

سنة ١٣٧٩هـ ـ سنة ١٩٦٠م

وعندما كنت موظفا في دار الكتب الوطنية قبل نحو عشر سنوات زار السفير السوفياتي في بيروت هذه الدار واهداني نسخة من الطبعة المذكورة وكتب عليها توقيعه الشخصي تذكارا لهذه الزيارة . وما أزال احتفظ بهذه النسخة في خزانة كتبي حتى اليوم اعتزازا بهذه البادرة التعبيرية اللطيفة من قبل السفير السوفياتي الكريم .

وفي سنة ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م) بدأت الاستعدادات في العالم الاسلامي للاحتفال بمرور ١٤٠٠ سنة على نزول القرآن الكريم على قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين والخلق أجمعين ، لذلك قررت الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاخستان المشاركة في هذه الاحتفالات وبهذه المناسبة فانها اعادت طبع القرآن الكريم على اساس النسخة المطبوعة سنة ١٩١٣م . التي ذكرنا بأن كاتبها هو ميرزا هاشم خوجاندي وهي ايضا بالخط النسخي الذي كتبت به النسخة السابقة . وقد كتب على الصفحة الاولى من هذه الطبعة العبارة التالية :

* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ *

وهذا القرآن موافق في الرسم لمصحف سيدنا عثمان رضي الله عنه (١٣٨٨ هجري) . وجدير بالذكر ان المقصود بالرسم العثماني كما هو مكتوب هنا ، الناحية الاملائية وليس الناحية الشكلية ـ لان المصحف العثماني رسم كما هو معروف بالخط الكوفي وليس بالخط النسخي كما هو الشأن في هذا القرآن الكريم .

كما كتب على الصفحة الاخيرة من المصحف العبارات التالية :

خاتمة الطبع

حامداً لله ومصلياً على رسوله الكريم ، فقد نُجز طبع القرآن الكريم وتجليده بمطبعة الحكومة في مدينة طشقند عاصمة أوزبكستان السوفياتية تحت أشراف الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان وبمصارفها اسهاما منها في العيد الاسلامي العالمي بمناسبة مرور الف واربعمائة عام لنزول القرآن العظيم ووقع الاختيار على اتخاذ هذه النسخة المطبوعة في طشقند سنة ١٩١٣ أصلا لطبعنا هذا اذ كانت ممتازة بخطها الجميل محررة في رسمها وفي قراءاتها وعدّ آيها على ما قرره علماء هذا الفن وائمة هذا الشأن . على انه قد قامت لجنة من كبار القراء بدراستها وتحقيقها من تلك النواحي وباصلاح اخطاء مطبعية وجدت فيها فجاءت ، ان شاء الله تعالى ، منقحة . والله يعفو عما زاغ عنه البصر وطغى فيه القلم . وهذا ثالث طبعات القرآن ، قامت بها الادارة الدينية في هذه السنوات العشر الاخيرة . وفقنا الله سبحانه لخدمة كلامه كما ينبغي . والحمد لله اولا وآخرا. وكان سنة ١٣٨٨ هجرية » .

وأُلحقت هذه الطبعة في آخرها بصفحة خاصة تضمنت رموز وعلامات الوقف وأخرى فيها فهرس السور بأسمائها وأرقام صفحاتها .

وبعد نهاية سورة الناس ، آخر سور القرآن الكريم حسب النص التوفيقي المأثور عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ذُيّلت الصفحة بأختام اسماء اللجنة التي قامت بكتابة المصحف واشرفت على طباعته وهم :

الكاتب ميرزا هاشم خوجندي وقاضي شرع خواجه غلام رسول خلف خواجه محمد رسول وملاّ محمد صابر قادري تاشكندي .

وهذه الطبعة اتبرك بحيازتها وهي هدية قدمها لي سماحة المفتي الشيخ ضياء الدين باباخانوف عندما كنت في طشقند تلبية لدعوة سماحته للاشتراك بالذكرى السنوية العاشرة لصدور مجلة « المسلمون في الشرق السوفياتي »

الناطقة باسم الادارة الدينية لمسلمي طشقند وكازاخستان وذلك في شهر شعبان المعظم ١٣٩٩هـ . الموافق في شهر تموز ١٩٧٩م . وهذه الطبعة بالحجم الكبير وهي مجلدة تجليدا فاخرا .

ـ وفي سنة ١٩٦٩م صدرت طبعة من القرآن الكريم بالحجم الكبير . وبعد ذلك بسنة أو في سنة ١٩٧٠م . اصدرت الادارة الدينية لمسلمي طشقند وكازاخستان طبعة من القرآن الكريم بالحجم الصغير .

ـ وفي المدة الاخيرة اي سنة ١٣٩٧هـ . ١٩٧٧م ، اشتركت الادارات الدينية الاربع في الاتحاد السوفياتي باصدار طبعة جديدة للقرآن الكريم على نفقتها مجتمعة وجرى تصحيح هذه الطبعة على يد مجمع البحوث الاسلامية بالازهر . وقد اعتمدت هذه الطبعة على الاصل الذي قدمه لهذه اللجنة الامام الاكبر شيخ الجامع الازهر . وقد انهي هذا المصحف بعد دعاء الختم بفهرس للسور وبعد هذا الفهرس تبويب آيات الاحكام بالقرآن وتوجيهاته الذي تضمن الموضوع والسورة أو الآية التي تتناوله مع تحديد رقم السور والآيات بحيث يسهل على تالي هذا الكتاب الكريم العثور على الآية التي تتناسب مع الآية المطلوبة . وهذا التبويب قسّم الى ١٦ بابا وهي التالية :

١ ـ الصلاة ، والغسل ، والوضوءوالتيمم .
٢ ـ الزكاة والصدقات .
٣ ـ الصيام .
٤ ـ الحج والعمرة .
٥ ـ الاحسان الى الوالدين وذي القربى .
٦ ـ الزواج والايلاء والظهار والطلاق والرضاع والعدة .
٧ ـ الميراث .
٨ ـ اليمين .
٩ ـ الربا والخمر والميسر .
١٠ـ المعاملات .
١١ـ الاصلاح بين الناس والاتحاد والشورى .
١٢ـ الشهادة بالحق بالعدل وأداء الواجبات بأمانة .
١٣ـ القصاص .
١٤ـ الجهاد .
١٥ـ آداب واخلاق وتوجيه .
١٦ـ شكر ودعاء وابتهال ومناجاة وتسبيح واستعاذة .

اما ختام الطبعة من هذا المصحف فهو العبارات التالية التي تحدد الاصل الذي اعتمد في الطبع والجهة التي تولت التصحيح واعطت الموافقة بالنشر ، والهيئات التي تولت الانفاق على هذا المشروع ثم تاريخ صدور هذه الطبعة ، وهذا هو النص المكتوب :

« طبع هذا القرآن المجيد من أصل المصحف الشريف الذي قدمه لنا الامام الاكبر شيخ الازهر وصححه مجمع البحوث الاسلامية بالازهر . طبع على نفقة الادارات الدينية الاربع لمسلمي الاتحاد السوفياتي » .

١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م

وهذه النسخة بحيازتي وهي هدية قدمت لي من قبل سماحة الشيخ ضياء الدين باباخانوف عندما كنت في طشقند في شعبان ١٣٩٩هـ . تموز ١٩٧٩م .

وهنا فاننا نحب أن نعرب عن اعجابنا بما قامت به الادارات من تبويب الموضوعات التي تضمنها القرآن الكريم في هذه الطبعة الجميلة الانيقة وان هذا العمل قد أسدى ، من غير شك ، خدمة كبيرة للراغبين في الافادة من هذا الكتاب الالهي المقدس فيما يتصل بتمكينهم من معرفة الآيات التي تبين هذه الموضوعات بحسب ارقامها والسور التي وردت فيها ، وفي ذلك من التيسير والتسهيل على هؤلاء الراغبين ، اذ يصلون الى بغيتهم دون ان يتكلفوا عناء البحث عن الآيات المطلوبة عن طريق مراجعة القرآن بكامله كلما احتاجوا الى ذلك . ولعل الذين قاموا بهذا التبويب العلمي المفيد قد استأنسوا بالدراسة التي قام بها المستشرق الفرنسي جول لابوم (Jules La Beaume) في كتابه « القرآن المفصل (Le Coran Analyse) » الذي نشره في باريس ١٨٧٨م . ونقله الى اللغة العربية محمد فؤاد عبدالباقي في شهر شعبان عام ١٣٤٢ للهجرة الموافق ٨ مارس سنة ١٩٢٤ للميلاد وجعل عنوانه « تفصيل آيات القرآن الحكيم » . وهذا الكتاب مقسم الى ١٨ بابا ، وهي : التاريخ ـ محمد صلى الله عليه وسلم ـ التبليغ ـ بنو اسرائيل ـ التوراة . النصارى ـ ما بعد الطبيعة ـ التوحيد ـ القرآن ـ الدين ـ العقائد ـ العبادات ـ الشريعة ـ النظام الاجتماعي ـ العلوم والفنون ـ التجارة ـ علم اجتماعي ـ العلوم والفنون ـ التجارة ـ علم تهذيب الاخلاق ـ النجاح .

وتحت كل باب منهـــا فروع تبلغ عدتهـا جميعها ٣٥٠ فرعا ، وتحت كل فرع جميع ما ورد فيه من آيات التنزيل ، ممـا لم يسبق جمعـــه وتنسيقه في كتاب قبله .

هذا وان عمل اللجنة المذكورة جدير بالتقدير والثناء وهو مدخل الى التوسع في هذا الموضـوع بما يتمم الفائدة منه ان شاء الله .

وبعد ، هذا ما تيسرت لنـا معرفتـــه عن المصاحف المخطوطة الموجودة في الاتحاد السوفياتي بالاضافة الى المصحف العثماني . وجدير بالذكر ان بعض هذه المصاحف ، التي شاهدناها فعلا في جمعية المستشرقين السوفيات بلينغراد ترجع الى عهود متقدمة ، أي الى اواخر العصر الاموي واوائل العصر العباسي ولقد لاحظت بعضها وقد تطرزت حواشيه بالتفاسير والشروحات ، حينا باللغـــة العربية وحينا باللغات الشرقية الاخرى وهي محل عناية اعضاء الجمعيـة المذكورة الذيـن يقومون بصيانتها لتقاوم عوامل الزمن ولا تتعرض للتلف .

القرآن الكريم والمستشرقون السوفيات

الباعث الاساسي الذي دفع العلماء الغربيين الى التوجه للاستشـراق كان وراءه رغبـة هؤلاء العلماء في فهم الدين الاسلامي الذي احتوى الشعوب التي تقطن في هذا القطاع الواسع من العالم القديم وجعلها امة واحدة تتجه في صلاتها الى مكة المكرمة حيث الكعبة المعظمة وتناجي ربها في صلاتها بكلامه الذي ادرج من حين نزوله على قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم الذي يعتبر مفتاح العقيدة الدينية عند المسلمين . وان الروس هم كغيرهم من ابناء العالم الغربي دخلوا فيما دخل فيه سائر الغربيين ولم يكونوا اقل من غيرهـم في الحرص على فهم الدين الاسلامي واتباعه من خلال هذا الكتاب الذي يعتقد اهله بانه كلام الله تعالى الذي لا تبديل لكلماته ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . واذا كانت اقطار اوروبا الغربيـة اتجهت الى الشرق الاسلامي لدراسة القرآن الكريم فان القطر الروسي الواقع في القسم الشرقي مـن أوروبا وجد ضالته المنشـــودة في قلب امتـداده الجغرافي ومنـذ زمن بعيـــد . فلمـــا سقطت الامبراطورية المغولية تحت سلطان الروس في القرن السادس عشر للميلاد خرجت الروسيا من حدودها الاوروبية الى آسيا فربط الاسلام بينها بعـد ان اصبح فيها ما يزيد عن اربعين مليون مسلم في آسيا الوسطى والقفقاس وبين اللغة العربية بروابط دينية وثقافيـــة وثيقـــة .. ولطالما فاخرت الروسيا بانتسابها الى التراث العربي الاسلامي عن طريـق الاعلام الذين انجبتهم بلاد الاتحاد السوفياتي على فترات مختلفة مثـــل الخوارزمي والبيروني وابن سينا والفارابي . ولعل أقدم الآثـار والمخطوطات والكتابات المرقومة على الاحجـار التي تشـير الى العلاقة القديمة بين الروسيا وبين العرب المسلمين رسالـة على الرق موجهـة من صاحب صَغَد في طاجكستان « ديواشـي » الى الأمـير الجـراح بن عبدالله وتاريخهـا يرجـع الى سنة ٩٩ أو ١٠٠ هجرية ، كما وُجد نقش عربي على صوى (حجر من أحجار الاميال) قرب تفليس يرجع تاريخـه الى القرن الاول الهجري كتب فيه « بسم اللـــه الرحمن الرحيم ، ثلاثة اميال من تفليس » وكذلك عثر على نقود ارشدت الى وجود دار لسك النقود في دمانيس قرب تفليس يرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر الميلادي . هذا بالاضافة الى عدة آلاف من سكان بخـارى وقاشقاداريا في آسيا الوسطى اليوم هم من أصل عربي ، ونحـن نجهـل كيف وصل هؤلاء العـــرب الى المواطـن المذكورة ، فهل هم من بقايا الفاتحين الذين جاؤوا مع قتيبة بن مسلم الباهلي الذي فتح تلك البـلاد ام هم من اهالي سوريا والعـراق الذين حملهـم تيمورلنك فيه أسرى عندما احتل هذين القطرين في القرن الرابع عشر الميلادي ..

وايا ما كان الرأي في هذا الموضوع فان الروس عرفوا العـــرب عن طريق الاحتكاك العسكري في العصور القديمة كما عرفوهم عن طريق الاحتكاك الثقافي في العصور الحديثة . وكان القرآن المدخل الذي توصلوا به الى معرفة سر الاسلام وأوضاع المسلمين .

الطبعة الاولى للقرآن في الروسيا

عرضنا من قبل اسم القـــائد البحـــري كوكوفتسوف (١٧٤٥ ــ ١٧٩٣م) على أنه اول من طبع القرآن الكريم في الروسيا وكان ذلك ســـنة ١٧٨٥ ــ ١٧٨٧م) وان الامبراطورة كاترين الثانية هي التي انفقت تكاليف هذه الطبعـة التي تكررت اربع مرات بعد ذلك في سنوات ٩٠ ــ ٩٣ ــ ٩٦ ــ ١٧٩٨ ثم طبع في قازان ١٨٠١) . واذا كانت هذه الطبعات لم تلفت الانظار اليها في نفس الروسـيا فان بقية الاقطار الاوروبية اهتمت بها كثيرا واثارت فيها ضجة كبيرة .

هذا مع العلم بأن اول طبعة للقـرآن الكريم

باللغة العربية ظهرت في العالم ، بل اول كتاب عربي طبع هو القرآن الكريم الذي اعتنت به مطبعة بفانينو دي بفانيني في مدينة البندقية بايطاليا . وقيل ان هذه الطبعة صدرت ما بين سنة ١٥٠٩ و ١٥٣٨م . ولكن هذه الطبعة لم تصل الينا مع الاسف الشديد لان الكسندر السابع بابارومية في ذلك الحين غضب وامر باحراق جميع النسخ المطبوعة . وقد نوهت بهذه الطبعة المستشرقة الايطالية اولغا بنيتو في كتابها المؤلفات الايطالية في الاسلام . ويقول يوسف اسعد داغر صديقنا وزميلنا في دار الكتب في بيروت ، المفهرس اللبناني الذائع الصيت ان الطبعة العربية الاولى للقرآن التي ظهرت لاول مرة في اوروبا ذكرها المفهرس الهولندي المشهور اربينوس وذلك في الصفحة ٨ من الفهرس الذي اعده للكتب العربية والذي ظهر في ليدن عام ١٦٢٠م وهو يشير الى ان هذه الطبعة ظهرت في البندقية بالمطبعة المذكورة .

كما ذكر هذه الطبعة ايضا المفهرس الالماني شنورر في كتابه الذي صدر باللاتينية عام ١٨١١م بعنوان المكتبة العربية ، وهو فهرس استعرض فيه اسماء الكتب العربية التي طبعت في اوروبا حتى تاريخ صدور كتابه هذا .

وهكذا ترى ان القرآن الكريم طبع في اوروبا قبل أكثر من ٢٥٠ سنة من طبعة في الشرق الاسلامي وانه في الوقت نفسه اول ما طبع من الكتب العربية اطلاقا .

اما اول ترجمة للقرآن الكريم الى اللغات الاجنبية فهي التي قام بها يوهانس أوبورينوس الذي ترجم القرآن للاتينية في مدينة بال السويسرانية . وكان ذلك عام ١٥٤٢م . ويقول المؤرخ الانكليزي ستاينبرغ في كتابه الطباعة خلال ٥٠٠ سنة ان هذه الترجمة حملت يومها مقدمتين احداهما لمارتين لوثر والاخرى لمساعده ويده اليمنى ميلانكتين احد كبار علماء عصره المعروفين .

واما اول كتاب ظهر في قواعد اللغة العربية فقد ظهر في ليدن وهو الذي الفه اربينوس سنة ١٦١٣م . وتبعه كتاب المجموع المبارك في التاريخ لابن العميد المعروف بالمسكين الذي ظهر سنة ١٦٢٥م . مع ترجمة لاتينية .

المستشرقون الروس يوالون اهتمامهم بالقرآن الكريم

وفي سنة ١٨٣٢ ـ ١٨٣٦م قدم جوتفالد (GOTTWALDT) ـ ١٨١٣ ـ ١٨٩٧م ـ من جامعة پرسلاو الى الروسيا لاعطاء دروس خاصة فكلفة فارن بوضع فهرس للمخطوطات الشرقية الموجودة في مكتبة بطرسبورغ (١٨٤١م) وفي هذه الاثناء نشأت بينه وبين الشيخ محمد عياد الطنطاوي (١٨١٠ ـ ١٨٦١) من اهل مصر صداقة شخصية والشيخ المذكور استدعاه قيصر الروسيا (١٨٤٠م) للتعليم في مدرسة الالسن التابعة لوزارة الخارجية الروسية ثم خلف سينكوفسكي (SINKOVISKI) على كرسي اللغة العربية بجامعة بطرسبرغ وبقي فيها من سنة ١٨٤٧ حتى سنة ١٨٦١م .

وان جوتفالد هو الذي وضع فهرس المخطوطات العربية بجامعة قازان في جزئين .. كما وضع اول معجم كبير باللغة الروسية اشتمل على آيات من القرآن الكريم وابيات من الشعر الجاهلي كشواهد (قازان ١٨٦١ ـ ١٨٦٣م) .

وفي سنة ١٨٥٩م قدم الى الروسيا رجل فارسي يدعى كاظم ميرزابك ، حيث ارتد عن دينه الاسلامي واعتنق النصرانية ، عمل هذا الرجل مدرسا للغة العربية في معهد الرهبان الارثوذكسي بقازان ، ثم في جامعة بطرسبورغ وفي هذه المدينة الف كتاب مفتاح كنوز القرآن في الكشف عن مفردات القرآن وكتب عليه : مقدمة كتاب مستطاب مفتاح كنوز القرآن من تصنيفات ميرزا كاظم بك . وتوفي المذكور سنة ١٨٧٠م .

وفي ذلك الوقت برز اسم كوفالفسكي (KOVALEVSKI) (١٨٠٠ ـ ١٨٧٨م) الذي تخصص في فقه اللغات القديمة ومن آثاره ترجمة القرآن الكريم من العربية الى اللاتينية . الا ان هذه الترجمة لم تطبع وهي ما تزال مخطوطة حتى الآن .

كما برز كذلك اسم سابلوكوف (SABLOUKOV) ١٨٠٤ ـ ١٨٨٠) الذي تخرج من كلية اصول الدين في موسكو (١٨٢٦ ـ ٣٠) حيث درس اللغة العبرية ثم من المدرسة الدينية في ساراتوف حيث تعلم اللغتين العربية والتتارية وهو ايضا انصرف الى الدراسات العربية طوال ١٨ سنة ومن آثاره ترجمة القرآن وهي اول ترجمة علمية الى الروسية (١٨٧٨م ثم تكرر طبعها عدة مرات) وله كتاب آخر عن القرآن الكريم وفيه جدل وحشو تضمن قوانين وتعاليم الاسلام (١٨٨٤م) وبارتولد (BARTHOLD) (١٨٦٩ ـ ١٩٣٠) الذي تخرج من جامعة بطرسبورغ وعين

أستاذا لتاريخ الشرق الاسلامي فيها ومن آثاره التي نشرها في حوليات المعهد الشرقي التابع للمتحف الآسيوي ـ في طشقند ـ دراسة عن القرآن والبحر (١٩٢٥م) وله ايضا في الاسلاميات كتاب عن الاوزاعي المدفون في الضاحية الجنوبية من مدينة بيروت (١٩٢٩م) .

وعثمانوف (YOUCHMANOV) ١٨٩٦ ـ ١٩٤٦م ـ احد طلاب جامعة لينغراد ثم احد اساتذتها فيما بعد وهو من الذين كتبوا القرآن بالترجمة اللاتينية (الصحافة والثورة ١٩٣٢م) بالاضافة الى كتاب معجم الكلمات الداخلية لاسيما العربية ، على الروسية (١٩٢٣م) واغناطيوس كراتشكوفسكي (KRATCHKOVSKI) ـ١٨٨٣ ـ ١٩٥١م ـ الذي فتنه الشرق بسحره فانصرف الى تعلم لغاته ، ولاسيما اللغة العربية بالذات ، ولهذا المستشرق الكبير آثار قيمة وكثيرة وهي تزيد عن ٤٥٠ كتابا ما بين تأليف وترجمة وتفسير وتحقيق ونقد ودراسة كتبها باللغات الروسية والفرنسية والالمانية والعربية . واكثر مقالاته نشرها في مجلة الشرق البتروغرادية وقد طبع فهرس مؤلفاته ودراساته من سنة ١٩٢١ حتى سنة ١٩٥٥م . وان هذا المستشرق زار بيروت وأشاد بفضل علمائها واساتذتها في مقالات نشرت خلال السنوات (١٩٤٥ ـ ٤٦ ـ ٤٨ ـ ٥٨) وقد منح جائزة ستالين من الدرجة الاولى تقديرا لجهوده في حقل الاستشراق . ومن افضل آثاره العلمية ترجمة القرآن الكريم الى اللغة الروسية الذي اصدره على حدة مجمع العلوم السوفياتي (١٩٦٤م) ومن دراساته القرآنية معنى كلمة النجم في القرآن وتفسير السورة (٥٥) ـ الرحمن ـ وان مجمع العلوم السوفياتي قد أخذ على عاتقه نشر مؤلفات هذا المستشرق وقد انهى منها ستة مجلدات حتى الآن .

وعندما كنت في موسكو (١٩٧٩/٧) ابديت رغبتي في الحصول على نسخةمن الترجمة الروسية للقرآن الكريم التي وضعها كراتشكوفسكي ، الا ان اصدقاءنا المستشرقين الروس اعتذروا عن عدم تمكنهم من تلبية رغبتي لنفاذ هذه الترجمة ولعل هذه الرغبة تتحقق في المستقبل عند اعادة طبعها من جديد .

وان من احسن التذكارات التي حملتها معي من لينغراد التي زرتها بدعوة من وكالة الانباء السوفياتية (نوفوستي) في ١٩٧٨/٧/١٨م احد كتب هذا المستشرق وعنوانه دراسات في تاريخ الادب العربي الذي طبع بأشراف كلثوم عودة فاسيليفا في دارانت علم بموسكو سنة ١٩٦٥ وقد اهداه له الصديق الكريم المستشرق السوفياتي المسلم الاستاذ أنس خالدوف وكتب لي على غلافه الداخلي : هدية الى السيد محمد طه الولي بمناسبة زيارته الى لينغراد ١٩٧٩/٧/١٨ .

وسيمينوف (SEMENOV) ـ ١٨٧٣ ـ ١٩٥٨م ـ الذي تخرج من كلية لازاريف وانتدب للتدريس في طشقند ثم عين مديرا لكلية التاريخ بمجمع العلوم في طاجكستان ، وقد اشتهر سيمينوف بسعة معرفته لآسيا الوسطى وعلاقة الاسلام في هذه المنطقة ببقية انحاء الاتحاد السوفياتي . وان هذا المستشرق اهتم بصورة خاصة بدراسة الحركة الاسماعيلية وتوفر على تحقيق مخطوطات هذه الحركة الباطنية وله دراسة نشرت في مجلة «ايران» سنة ١٩٢٧م عنوانها القرآن في نظر الاسماعيليين والمستشرق اسكندر تشودسكو (TCHODZKO) ـ ١٨٠٤ ـ ١٨٩١م ـ وكان هذا المستشرق ضليعا باللغات الشرقية لا سيما الفارسية . سافر الى بلاد العجم (ايران) وكتب عن الاسلام وعن النبي محمد صلى الله عليه وسلم وكذلك كتب عدة أبحاث ودراسات عن القرآن الكريم . وتوفي تشردسكو في ليتوانيا في ٢٠ كانون الاول ١٨٩١م .

ومن المستشرقين الروس الذين اهتموا بترجمة القرآن الكريم كازيمرسكي ، وهو من اصل بولوني توفي ١٨٧٠ ، ترجمه يوسف اليان سركيس في كتابه « معجم المطبوعات العربية والمعربة » قال : ولد في بولونيا واستوطن فرنسا ونشر فيها مطبوعات شرقية مفيدة لاسيما معجمه الكبير العربي الفرنساوي وقد نقل القرآن الشريف الى الفرنسية وترجمته معروفة بدقتها وسلاستها .

ولهذا المستشرق كتب اخرى منها : (حكاية انيس الجليس) منتخبة من كتاب الف ليلة وليلة طبعت مع ترجمتها الى اللغة الفرنسية وبعض ملحوظات للمترجم ، وكتاب اللغتين العربية والفرنساوية ويعرف بقاموس كازيميرسكي ، اعاد طباعته في مصر عبيد غلاب احد المترجمين في دار الطباعة الخديوية باربعة مجلدات سنة ١٨٧٥ .

ومن النساء الروسيات اللاتي عنين بالدراسات القرآنية فيرا كراتشكوفسكايا (VERA KRATCHKOVSKAYA) المولودة عام ١٨٨٤م زوجة المستشرق كراتشكوفسكي (١٨٠٤م) وانتقلت العربية منها الى معهد الرهبان

وهي خبيرة بالنقوش الاسلامية وقد اصدرت مجلة الكتابات الشرقية (١٩٤٧م) ، من آثارها : نوادر مخطوطات القرآن من القرن السادس عشر (١٩٦٠م).

وكاشتاليفا (KACHTALEVA) ١٨٩٧ ـ ١٩٣٩ تخرجت من جامعة موسكو في الدراسات القرآنية تقارير نشرتها في مجمع العلوم ، من آثارها وهي «مصطلحات ـ اناب ـ واسلم ـ واطاع ـ وشهد ـ وحنف في القرآن » . والتاريخ الزمني لسور القرآن الثامنة (الانفال) والرابعة والعشرين (النور) والسابعة والاربعين (محمّد) ـ ١٩٢٧ ـ ، وحول ترجمة الآيتين ٧٧ و ٧٨ من السورة الثانية والعشرين في القرآن (القصص) وكتاب مصطلحات القرآن في ضوء جديد (١٩٢٨) وكتاب « القرآن وبوشكين » (الشاعر الروسي الشهير) .

الدراسة المقارنة بين القرآن والانجيل في الروسيا

بدأ تدريس العربية في الروسيا بجامعة قازان (العجمي المتنصر) وايلمينسكي (١٨٤٦) وسابلوكوف (١٨٦٢) وبندلي الجوزي (١٨٧١ ـ ١٩٤٢م) من اهل القدس الشريف .

أما بعد

فاننا نرجو ان نكون فيما عرضناه من اطوار الدراسات القرآنية في بلاد الروسيا ، سواء فيما يتعلق بالمصحف العثماني ، أو المصاحف المخطوطة المطبوعة ، بالاضافة الى أسماء المستشرقين الروس الذين اهتموا بهذا الكتاب الكريم ، ترجمة أو تحليلا أو تحقيقا ، ان نكون قد اتحنا لمن يطلع على هذا الموضوع فرصة الوقوف على التاريخ الكامل للقرآن الكريم في الروسيا ، وفوق كل ذي علم عليم .

★
★

المراجع

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ لابن تغري بردى .

تلفيق الاخبار في تاريخ قزان والبلغار ـ للشيخ محمد مراد بن عبدالله الرمزي البلغاري ثم المكي .

مجلة بلاد السوفيات .

مباحث في علوم القرآن ـ للدكتور الشيخ صبحي الصالح.

مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ـ مقالة الاب توما دبيو المعلوف وجعفر الحسيني وعبدالرحمن الكيالي .

اخبار الحكماء ـ للقفطي .

المجلة الشرقية الامريكية .

نشرة مجمع العلوم السوفياتي ـ كراتشكوفسكي .

المسلمون في الاتحاد السوفياتي ـ للشيخ ضياء الدين ابن ايشان باباخان .

المؤلفات الاسلامية في الاسلام ـ اولغا بنيتو .

المكتبة العربية ، المهندس شنورر (الالماني) ـ الطباعة خلال ٥٠٠ سنة .

معجم المطبوعات العربية والمعربة ـ يوسف اليان سركيس .

اعجاز القرآن ـ مصطفى صادق الرافعي .

المعجزة الكبرى ، القرآن ـ الشيخ محمد ابو زهرة .

مجلة الكشاف ـ مقال لعبدالله مخلص .

ناظورة الحق في فرضية العشاء وان لم يغب الشفق ـ شهاب الدين المرجاني .

الفوائد المهمة ـ شهاب الدين المرجاني .

تاريخ المصحف العثماني ـ الشيخ اسماعيل مخدوم .

تاريخ القرآن ـ الشيخ موسى جارالله روستوفدوني .

السياحة فيما وراء النهر ـ الشيخ موسى جارالله روستوفدوني .

عيون الاخبار ، لابن قتيبة الدينوري .

معجم البلدان ـ لياقوت الحموي الرومي .

رحلة ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار .

منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان ـ لمحمد امين الخانجي .

نهاية الارب ، لشهاب الدين النويري .

صفحات من تاريخ الاسلام والمسلمين في بلاد السوفيات ـ الشيخ طه الولي .